بسم الله الرحمن الرحيم

كَيْفَ نَدْرُسُ عِلْمَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ
(الْمَرْحَلِيَّةُ وَالْأُسْلُوبُ)

كتبه

سامي وديع عبد الفتاح القدومي

حقوق الطبع محفوظة لدار الوضاح
عمان – الأردن

للتواصل مع المؤلف
swadi68@gmail.com

للاطلاع على كتب المؤلف
http://Samiwadi.blogspot.com
(كتب ودراسات سامي القدومي)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم القرآن، وجعل تعليمه نعمة مقدمة على خلق الإنسان، ومقدمة على تعليمه البيان (الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)) (سورة الرحمن).

والصلاة والسلام على رسول الله الهادي إلى سبيل الإيمان، وعلى آله وصحبه وأهل القرآن، اللهم أدخلنا في زمرتهم يا رحيم يا رحمن!

- فضل التفسير :

" فلما أحبَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام عبدَ الله بن عباس المحبة البالغة ، والتي دفعته إلى أن ضمَّه إلى صدره ، دعا له ببالغ الدعاء وأعظمه ، وطلب له كمال الخير وأكمله ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ (البخاري : ٧٣).

وتعليم الكتاب لا ينحصر في حفظه فقط ، بل فهمه في أعلى المقامات ، لأن الغاية من إنزاله وإرساله هو اتباع الخلق ، ولا يكون ذلك إلا بعد الفهم والعلم .

وعلم تفسير القرآن أجلس ابن عباس - وهو ما زال فتى - مجالس الشيوخ الكبار من أصحاب الرأي والمشورة ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا] حَتَّى

خَتَمَ السُّورَةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا فَقَالَ لِي يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكَذَاكَ تَقُولُ قُلْتُ لَا قَالَ فَمَا تَقُولُ قُلْتُ هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ [إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ] وَالْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ (البخاري : ٣٩٥٦)

وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن خير الناس وأفضلهم فقال : إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ (البخاري : ٤٦٤٠)

فأيُّ فضل بعد هذا الفضل ، وأيُّ خير بعد هذا الخير ، تعلُّم القرآن خير التعلُّم ، ومتعلِّم القرآن خير المتعلِّمين ، وتعليمه خير التعليم ، ومعلِّمه خير المعلِّمين ، وخيرٌ من الناس الباقين .

والاشتغال بتفسير القرآن خير الاشتغال ؛ لأن الاشتغال يأخذ حكمه بناء على قيمة العلم المشتغل به ، فكلما دنا دنا ، وكلما علا علا ، والاشتغال بالقرآن خير الاشتغال ، لأن القرآن خير الحديث ، فهو كلام الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ (مسلم : ١٤٣٥)" (التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني ، للمؤلف ، ص ٣-٤)

يقول البيضاوي : "فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً ، علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها". (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، للبيضاوي ، ١/ ٢٣)

ويقول الشوكاني : "فإن أشرف العلوم على الإطلاق وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق وأرفعها قدراً بالاتفاق هو علم التفسير لكلام القوي القدير إذا كان على الوجه المعتبر في الورود والصدر غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر .

وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان قريبة إلى الفهام والأذهان ، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق ، ويدري بها من يميز بين كلام البشر وكلام خالق القوى والقدر ، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل ومن لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل " (تفسير فتح القدير ، للشوكاني ، ١/ ١١- ١٢)

ما هو علم التفسير وما هي حدوده ؟

من جهة اللغة فإن معاني التفسير كلها تدور على البيان والكشف والإيضاح ، قال ابن فارس : "(فسر) الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه" (معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ٤/ ٤٠٠)

وأما المعنى الاصطلاحي ، فكل التعريفات تدور حول : بيان معاني القرآن .

قال الزركشي : "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و سلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ" . (البرهان في علوم القرآن ، ١/ ١٣)

ومن التعريفات الإصلاحية المضبوطة لمعنى تفسير القرآن تعريف ابن جُزَي الكلبي : "معنى التَّفسيرِ: شرحُ القرآنِ ، وبيانُ معناه، والإفصاحُ بما يقتضيه بنصِّه أو إشارَتِه أو فحواه"

فما المقصود : بـ ١- النص ٢- وإشارة النص ٣- وفحوى النص ؟

المقصود بالنص هو : المعنى الحرفي للمفردات والتراكيب ، كقوله تعالى: { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } [البقرة: ٢٧٥] فالنص يدل على حل البيع وحرمة الربا . انظر (علم أصول الفقه ، لعبد الوهاب خلاف ، ص: ١٤٤)

والمقصود بإشارة النص : " دلالة النص عن معنى لازم لما يفهم من عبارته غير مقصود من سياقه ؛ يحتاج فهمه إلى فضل تأمل أو أدناه ، حسب ظهور وجه التلازم وخفائه . مثال ..... قوله تعالى: { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } (آل عمران: ١٥٩) ، يفهم منه بطريق الإشارة إيجاد طائفة من الأمة تمثلها وتستشار في أمرها لأن تنفيذ

الأمر ومشاورة الأمة يستلزم ذلك " . انظر (علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ، ص: ١٤٦)

أما فحوى النص هو : " المعنى الذي يفهم من روحه ومعقوله، فإذا كان النص تدل عبارته على حكم في واقعه لعلة بني عليها هذا الحكم ، ووجدت واقعة أخرى ، تساوي هذه الواقعة في علة الحكم أو هي أولى منها، وهذه المساواة أو الأولوية تتبادر إلى الفهم بمجرد فهم اللغة من غير حاجة إلى اجتهاد أو قياس، فإنه يفهم لغة أن النص يتناول الواقعين، وأن حكمه الثابت لمنطوقه يثبت لمفهومه الموافق له في العلة، سواء كان مساويا أم أولى.

مثال هذا قوله تعالى في شأن الوالدين: { فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ } [الإسراء: ٢٣]، تدل عبارة هذا النص على نهي الولد أن يقول لوالديه " أُفٍّ "؛ والعلة في هذا النهي ما في هذا القول لهما من إيذائهما وإيلامهما .

وتوجد أنواع أخرى أشد إيذاء وإيلاماً من التأفف : كالضرب والشتم ، فيبادر إلى الفهم أنهما يتناولهما النهي ، وتكون محرمة بالنص الذي حرم بالتأفف، لأن المتبادر لغة من النهي عن التأفف النهي عما هو أكثر إيذاء للوالدين بالأولى، فهنا المفهوم الموافق المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق.

مثال آخر: قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً } [النساء: ١٠] يفهم من عبارة هذا النص تحريم أكل الأوصياء أموال اليتامى ظلماً ، ويُفهم من دلالته تحريم أن يُؤكِلوها غيرهم، وتحريم إحراقها وتبديدها وإتلافها بأي نوع من أنواع الإتلاف، لأن هذه الأشياء تساوي أكلها ظلماً " (علم أصول الفقه ، لعبد الوهاب خلاف : ص: ١٤٨)

حدود التفسير

وما خرج عن بيان القرآن وتوضيح نصه وإشارته وفحواه ، فهو خارج عن معنى التفسير ، ولكنه داخل ضمن دراسة القرآن إذا كانت الدراسة متعلِّقةٌ به .

فمن ذلك الاستطراد بالوعظ ، كما في بيان قوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣] فالاستطراد بالوعظ حول بر الوالدين ، وصور هذا البر وأهميته و .. و .. ، و ..... .

كله زائد عن مسمى التفسير الاصطلاحي ، ولكننا نقول للقائل : جزاك الله خيراً على هذا الوعظ الرائع ، ولكن التفسير الاصطلاحي غير ذلك ، ولكن لا يُنكر أن يضع المفسِّر هذا الوعظ في كتابه ، فرسالة القرآن هي رسالة الهداية ، ولكن هذا التحديد لمعنى التفسير إنما هو من باب تمييز العلوم عن بعضها .

وكذلك التوسع في بيان المحاسن البلاغية ونحو ذلك فهو زيادة على التفسير الاصطلاحي ، ويظهر هذا من قول السيوطي في معرض الدفاع عن قول للزمخشري :

"وإنما مقصوده ما أشار إليه أوّلا أن القدر الزائد على التفسير من استخراج محاسن النكت والفِقَر ولطائف المعاني التي يستعمل فيها الفكر، وكشف الأستار عن غوامض الأسرار، وبيان ما في القرآن من الأساليب، وما تضمنه من وجوه البلاغة في التراكيب" (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي : ١/ ٨)

ولكن من هذه الوجوه ما يؤثر على المعنى فيدخل ضمن التفسير الاصطلاحي لا زائداً عليه ، وأذكر لطيفة قرآنية تؤثر في بيان معنى الآية :

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (سورة النحل : ١١٢)

"قيل : إن هذه القرية هي مكة ، وقد روى الطبري في (تفسيره١٤/ص١٨٦) عند تفسير هذه الآية أن ابن عباس قال عن القرية "يعني مكة" ولكنه سند لا يصح ؛ لأنه من طريق عطية العَوفي ، وأما ما رُوي عن التابعين ومن بعدهم فهي آراء بحاجة إلى دليل ، وإنما درست السند عن ابن عباس دون التابعين ؛ لأن لقوله اعتباراً وإن لم يكن في هذا المقام بدرجة الحجية ، ولكنه ترجمان القرآن واسمع لقوله رضي الله عنه قَالَ : ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ : "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ" (البخاري : ٧٣)

والصحيح أن هذه القرية المضروبة مثلاً هي قرية غير مكة ، وضُربت مثلاً لتخويف كفار مكة ابتداء ، وذلك لأن هذه القرية وصفت بأنها كافرة إذ كفرت بأنعم الله ، ومكة أحب أرض الله إلى الله لم يصفها سبحانه وتعالى بصفة مشينة ، ألا ترى – بارك الله فيك – كيف نزه مكة عن وصفها بالظلم في قوله تعالى (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ...) (النساء : ٧٥) فلم يأتِ النص "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالمة" علماً أن ذلك جائز لغة ، ولو قيل "القرية الظالمة" لقصد أهلها ، ولكن لتكريم مكة صرَّحت الآية بأن الظالم هو أهل مكة لا مكة .

ولو كانت مكة المقصودة بالقرية لقيل بناء على ما سبق "فكفر أهلها بأنعم الله" .

وكذلك لم يأت النص " قريةً آمنة" أي : دون الفعل (كَانَتْ) ، فما دلالة الفعل (كَانَتْ) ؟

مما يدل عليه الفعل (كَانَتْ) أن هذه القرية قرية حقيقية (كَانَتْ) أي كان لها وجود وأصابها العذاب ... وهذا مما يدل – أيضاً - على أن القرية ليست مكة ، بل مثلٌ حقيقي ضُرب لكفار مكة تهديداً لهم ، والقول بأن هذه الآية إخبار عن مكة لما سيحصل لها من

العذاب يتعارض والفعل (كَانَتْ) " (التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني ، للمؤلف ، ص ٢٨٦-٢٨٧)

والكلام في فقه الكلمة اللغوي والتوسع فيه يُعدُّ من التفسير إن كان يبين المعنى أو يقوي فهمه أو يساعد على الجمع بين الأقوال أو الترجيح بينها .

متى يكون التفسير باطلاً ؟

يكون التفسير باطلاً إذا وجد أحد الأمور التالية فيه :

" أحدها : التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

الثاني : تفسير المتشابه لا يعلمه إلا الله .

الثالث : التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً .

الرابع : التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل .

الخامس : التفسير بالاستحسان والهوى " (الإتقان في علوم القرآن ،٢/ ٤٨٢)

نصائح لا بد منها لطالب العلم

١ - إخلاص النية والابتعاد عن المعاصي هما الوقود الحقيقي لإكمال الطريق .

إن رأى الله تعالى منك الإخلاص فستنال معونته ، فعلوم الشريعة ليست كعلوم الحياة الدنيا ؛ لأنك لو حصّلت من علوم الشريعة مهما حصّلت فلن تكون من العلماء الربانيين إلا بعطاء الله فقط ؛ ولذا جاء النص في القرآن (أوتوا العلم) ولم يأت " أخذوا العلم " لأن علم الدِّين عطية من الله سبحانه ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) (البخاري : ٦٩) (مسلم : ١٧١٩) . فجاء التعبير " يُفَقِّهْهُ " وليس " يتَفَقَّه " والفرق بينهما واضح .

٢ - إعادة الكتاب حتى الإتقان خير من الانتقال إلى كتاب آخر .

من قرأ الكتاب واعتبر أنه بالانتهاء من قراءته حان له مغادرته إلى غيره فإنه لن يكون من المتقنين في العلم ، فلا تغادر كتاب مرحلتك إلا عندما تتمكن منه غاية التمكّن .

ولقد كان العلماء يكررون الكتب لتثبتها ولا يسأمون من ذلك ، فعلى سبيل المثال ذكر ابنُ السُّبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) في ترجمة الربيع بن سليمان المزني صاحب الشافعي (ت ٢٦٤) قال: قال الأنماطي: قال المُزَني: أنا انظر في كتاب (الرسالة) منذ خمسين سنة ، ما أعلم أني نظرتُ فيه مرَّةً إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته. (المشوق إلى القراءة وطلب العلم : ص٩٠)

٣ - تكرار الكتاب بعد فترة انقطاع أفيد من تكراره مباشرة .

دراسة المادة ثم مراجعتها بعد ساعة ليس كافياً ،فلا بد من المراجعة بعد فترة انقطاع ، وهذه المراجعة أفيد من التكرار في زمن واحد .

٤- ملاءمة الكتاب تخضع لأشياء يصعب قياسها عن بُعد ، كالقدرة العقلية ، والمعلومات التراكمية ، وشدة الدافعية .

٥- المعلم المرشد ضرورة للمبتدئين

لا يستطيع أحد أن يبدأ في أي علم البداية الصحيحة حتى يبدأ على يد معلم مرشد ، مهما كان هذا العلم سهلاً ؛ لأن كل علم له مفاتيحه وغوامضه ، وله طرق مختصرة تسهل الطريق لتحقيق المراد ، ومن سلك غير هذه الطريق سيعلم عاجلاً أو آجلاً أنه أخطأ الطريق.

٦- قراءة قصص العلماء السابقين وحرصهم على العلم تزيد في قوة الدافعية وتمكن الطالب من إكمال الطريق .

ومن الكتب التي ينصح بها : كتاب (صبر العلماء على شدائد العلم والتعلّم) للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله ، وكتاب (المشوق إلى القراءة وطلب العلم) لعلي بن محمد العمران ، وغيرها من الكتب .

وأضرب مثلاً واحداً بقراءة ابن الجوزي (ت ٥٩٧) (٢٠ ألف) مجلدًا وهو بَعْدُ في الطلب : قال ابن الجوزي عن نفسِه في (صيد الخاطر) - أثناء حديثه عن المطالعة والإكثار منها :

وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعتُ على كنز ، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي ، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب -وكانت أحمالاً- وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه.

ولو قلت : إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلب .....

وهذا ابنُ الجوزي -أيضًا- يوصي العالِمَ وطالبَ العلم بقوله : ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك" (المشوق إلى القراءة وطلب العلم : ص ٣٩)

٧- العلم منه وسائل ومنه غايات ، فلا تجعل الوسائل هي الغاية .

غايات علوم الشريعة هي : فهم القرآن والسنة والفقه فيهما ، والوسائل لذلك على سبيل الإجمال هي : علوم اللغة وعلوم القرآن وعلوم الحديث وأصول الفقه .

فلا يتعمّق الدارس - طول عمره - في علوم الوسائل على حساب الغايات ، بل يأخذ من الوسائل بما يساعده على إدراك الغايات .

٩- لا بد من المرحلية والمنهجية في طلب العلم .

لا بد من معرفة المخطط في كل علم قبل الولوج فيه ، وهذا المخطط العلمي لا بد أن يكون من جهة أهله .

١٠ - لا يمر بك يوم دون تحصيل ، الوقت يصعب حفظه ويسهل ضياعه .

إذا كان يؤذيك حر المصيف *** ويُبْس الخريف وبردُ الشتا

ويلهيك حُسنُ زمان الربيع *** فأخذك للعلم قل لي متى

١١- من الخطأ التوسع في تفسير سورة أو سور توسعاً عظيماً بينما لم يُقرأ تفسير السور الأخرى ولو قراءة إجمالية .

مستويات طلب علم التفسير

قسّمتُ مستويات طلب علم التفسير إلى ثلاثة مستويات ، مبيناً في كل مستوى الأمور التالية :

١ - المتطلبات المسبقة للمستوى .

٢ - كتب التفسير المناسبة للمستوى .

٣ - والكتب المساعدة .

٤ - طريقة الدراسة التفصيلية .

٥ - طريقة التقييم الذاتي .

والذي قصدته من عنوان الكتاب (كيف ندرُس علم تفسير القرآن – المرحلية والأسلوب) قصدت بالمرحلية هذه المستويات الثلاثة ، وقصدت بالأسلوب أسلوبَ الدراسة التفصيلية وطريقة التقييم الذاتي .

ولا أحصر كتب العلم بما سأذكره في هذا الكتاب ؛ لأن الكتب المناسبة لكل مستوى من الكثرة بمكان ، ولكنه الاجتهاد ؛ فلكل طالب في ما مضى من طلبه تجربة وقناعة واجتهاد ، وما أذكره من الكتب ليس ملزماً ، وذكر أسماء معينة للكتب من باب التسهيل في الطلب .

ولا داعي أن أذكر بعد ذكر الكتب ما يقوله بعضهم ، أتدري ما يقولون ؟! يقولون بعد ذكر أي كتاب من كتب العلم ليس من كتب مذهبه : عليه ملاحظات ، أو مآخذات ، أو ما شابه هذا .

أقول لهم : أيُّ كتاب يسلَمُ من النقد ؟؟!! بل لا بد أن نعلم أن من يريد طلب العلم وفق المنهج الصحيح فإنه يتزود في كل مرحلة بما يمكنه من الوقوع في الزلل . ولا أعترض على التحذير من الكتب التي لا بد أن نحذِّر منها أو من أشياء فيها ، فمثلاً : تفسير (الكشاف) للزمخشري ، نقول عنه : تفسير فيه آراء اعتزالية . وهذا رائع ، ولكن أن أُتبع كل كتاب بالغمز واللمز ، وما فيه إلا أن خالفني باجتهاده ، رغم أن اجتهاده معتبر ، فهذا لا ينبغي أن يفعله طلاب العلم .

وكذلك فإن الكتب المشار إليها في كل مستوى إنما تشكّل الحد الأدنى ، أما الاستزادة فهي أفضل ، ولو درس مَن في المستوى الأول كتب المستوى الأول والثاني فلا شيء في ذلك ، ولكن المشكلة بدراسة كتب المستوى الثاني قبل الأول .

تفصيل المستويات الثلاثة

المستوى الأول

- المتطلبات المسبقة لطالب التفسير في المستوى الأول

١ - إتقان تلاوة القرآن

فلا ينبغي أن يتفرّغ من لا يستطيع إتقان تلاوة القرآن لدراسة التفسير ، بل عليه أن يتفرّغ لتعلم تلاوة القرآن أولاً ، ولا يعني هذا أن نمنعه من البحث عن معنى آية أو السؤال عنها ، بل الذي أعنيه هو التفرُّغ لدراسة التفسير من سورة الفاتحة إلى سورة الناس .

٢ - الثقافة اللغوية .

لا بد لمن يريد أن يدرس التفسير أن يكون ذا ثقافة لغوية ، ولو كانت متواضعة في بداية الأمر فلا ضير في ذلك ، فعلى سبيل المثال : عليه أن يعرف من النحو الفاعل والمفعول به والجار وا رور وهكذا ... ، وهذا دون التعمّق .

٣ - القدرة على الفهم والتلخيص .

أي يستطيع فهم الكلام إذا قرأ ، ولكن من لا يمتلك القدرة على الفهم الابتدائي ، فهذا لا يملك القدرة على دراسة التفسير .

٤- حفظ معاني القرآن من كتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان) لمحمد حسنين مخلوف) (١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م) ، ويستطيع الدارس أن يحفظ المعاني من أي كتاب مختصر لمعاني القرآن ، وهي كثيرة.

وسبب حفظ المعاني مع دراسة التفسير أن الأسلوب الإنشائي يخفي خلفه وضوح معنى المفردة القرآنية .

٥- دراسة (مقدمة التفسير) لابن تيمية . والاستعانة بأي شرح لها ، وللشيخ محمد صالح العثيمين شرح لـ (مقدمة التفسير) لابن تيمية ، وكذلك دراسة كتاب (أصول التفسير) لابن عثيمين . ودراسة هذه الكتب لتوسيع الأفق ، وتهيئة الأرضية العلمية قبل التوسّع فيها .

كتب التفسير في المستوى الأول

أنصح بدراسة تفسير (زبدة التفسير) لمحمد الأشقر رحمه الله ، وأنصح بدراسته للأمور التالية :

الأول : اختصاره المقبول ، فليس بالاختصار المُخل .

الثاني : دقة عبارته ووضوحها ، وينتج عن هذا سهولة فهم عباراته .

الثالث : أصل الكتاب جمع النقل والاجتهاد ، وأصله هو كتاب (فتح القدير) للشوكاني .

الرابع : مؤلفه معاصر يكتب بلغة عصره ، فلا يستخدم الاصطلاحات والعبارات المركَّزة .

الخامس : مارس مؤلفه التدريس الجامعي المنهجي والتعليم المدرسي، فهو على معرفة بطريق إيصال المعلومة .

السادس : وهو مهم أيضاً ، وهو خلوه من المخالفات العقدية ، ما يجعله كتاباً آمناً للمبتدئين .

السابع : أنه مطبوع على حاشية المصحف ، وهذا يسهّل مراجعة التفسير وقت قراءة القرآن .

ومنهج المؤلف يظهر من مقدمته ، يقول مؤلفه رحمه الله تعالى :

"وبعد ، فإني رأيت تفسير العلامة الشوكاني المسمى (فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير) من خير ما أنتجته قرائح العباقرة في بيان معاني الكتاب العزيز، فإن مؤلفه - رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه - كان من خيار حملة العلم المتين، علم

الدين القويم، فقد جمع بين العلم بالكتاب المبين، والبصيرة في سنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، والفقه في الشريعة وأحكام الدين، وأتقن فروع الفقه وأصوله، واللغة وعلومها، ومارس الفتيا والقضاء، مع اتباع لمنهج السلف الصالح في العمل والاعتقاد، جمع هذا مع روح وثابة، وحماس قل نظيره، في النصح لقومه أهل اليمن وللمسلمين، ودعوتهم إلى الحق الصريح، وتنفيرهم من العقائد المنحرفة، والبدع المضلة، عزف عن التقليد، ولم يرض لنفسه درجة أقل من الاجتهاد والتحقيق، وكان له في الاجتهاد والتحقيق جولات موفقة، وحملات مسددة، يشهد بذلك كل منصف اطلع على ما خلّفه هذا البحر في العلوم الإسلامية، من الأعلام الشوامخ، والآثار الخوالد ، التي أصبحت موضع ثقة أهل العلم في المشارق والمغارب، فجاء تفسيره بحمد الله شاهداً على كل ذلك، وتركزت فيه نظراته الثاقبة، ومواهبه العالية.

وقد كنت توليت تدريس تفسير الشوكاني - رحمه الله - لطلبة العلم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فأخذت بفضله وتحقيقه، وتمكنه من جلاء مفهوم الكتاب ومنطوقه، وبيان ما فيه من الإشارات، وخفي الدلالات، وقد عنّ لي أن الذي يصرف عامة الناس عن تفسيره، طول باعه في التحليلات اللغوية، وطول نفسه في مناقشة الأقوال غير المرضية، وفي توجيه القراءات المختلفة القرآنية.

وقد أردت خدمة الكتاب العزيز باختصار تفسيره هذا، لتقريب النفع به لعامة المسلمين، فاختصرته على قول واحد في تفسير الآية غالباً ، هو أولى الأقوال بالصحة، وأقربها إلى المعنى المتبادر من الآية دون تكلف، وتجاوزت التحليل اللغوي، فذكرت مباشرة المعنى الذي تؤول إليه الآية، واقتصرت عند اختلاف القراءات على التفسير الموافق لقراءة حفص، وأخذت من قسم الدراية، دون قسم الرواية، إذ كان الشوكاني - رحمه الله - يدخل في قسم الدراية حاصل معنى المرويات التي يجمعها في آخر بحثه، ولكن ذكرت قليلاً من المرويات مما رأيت له ميزة خاصة في جلاء معنى الآية.

وحرصاً على تعميم الاستفادة منه، وتقريب النفع به لغير المختصين، تجنبت - قدر الطاقة - التعبيرات الاصطلاحية اللغوية والمنطقية، وغيرها من الاصطلاحات الفنية، وربما زدت على الكلام الأصل . بين معقوفين غالباً . ما رأيت الحاجة ماسة لذكره، وجزى الله خيراً

أخاً ينبهني إلى خطأ إن وجده في هذا المختصر، وأخاً ينتفع بما فيه من الصواب، فيدعو لي من وراء الغيب دعوة خير" . (زبدة التفسير ، لمحمد الأشقر ، ص ٥)

وهذا مثال من كتاب (زبدة التفسير) حتى يظهر أسلوبه جلياً :

"(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) العدل الإنصاف بين الناس وعدم تفضيل بعضهم على بعض بالحكم لهم أو عليهم إلا بحق يوجب لهم ذلك ، ومن العدل التوسط بين طرفي الإفراط و التفريط ، والإحسان التفضل بما لم يجب ، كصدقة التطوع وما يثاب عليه العبد ، مما لم يوجبه الله عليه في العبادات وغيرها ، (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) إعطاء القرابة ما تدعو إليه حاجتهم (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) هي الخصلة المتزايدة في القبح من قول أو فعل كالزنى والبخل (وَالْمُنْكَرِ) ما أنكره الشرع بالنهي عنه ، وهو يعم جميع المعاصي (وَالْبَغْيِ) وهو الكبر والظلم (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) بما ذكره في هذه الآية مما أمركم به و نهاكم عنه ، فتتعظون بما وعظكم الله به " (زبدة التفسير بهامش مصحف المدينة المنورة ، ص ٢٧٧)

ولا بد من معرفة منهج الشوكاني في تفسيره حتى تتضح ميزات تفسير (زبدة التفسير) ، قال الشوكاني (١٢٥٠ هـ) في مقدمة تفسيره :

"ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشافخة الأركان العالية البنيان المرتفعة المكان ، رغبت إلى الدخول من أبوابه ونشطت إلى القعود في محرابه والكون من أحزابه ، ووطنت النفس على سلوك طريقة هي بالقبول عند الفحول حقيقة ، وها أنا أوضح لك منارها وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول :

إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين ، وسلكوا طريقين : الفريق الأول اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية وقنعوا برفع هذه الراية ، والفريق الآخر جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً ، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساساً ، وكلا الفريقين قد أصاب وأطال وأطاب ، .... وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذي

وطنت نفسي عليه ، والمسلك الذي عزمت على سلوكه - إن شاء الله - مع تعرضه للترجيح بين التفاسير" (فتح القدير ، للشوكاني : ١/ ١٢)

طريقة الدراسة التفصيلية

وأما عن طريقة الدراسة التفصيلية لتفسير (زبدة التفسير) فيمكن إجمالها في ما يلي :

أولاً : حفظ معاني القرآن من كتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان) لمحمد حسنين مخلوف ، وللدارس اختيار طريقة حفظ المعاني ، هل يحفظها لصفحات ثم يدرس (زبدة التفسير) أو يحفظها لسورة ، أو يحفظها للقرآن كاملاً وبعده دراسة التفسير .

وإن كنت أحبذ حفظ المعاني لصفحات ثم دراسة التفسير ، حتى لا تتسع المادة ولا تمل النفوس ، ولكن لا بد أن يكون حفظ المعاني في وقت ودراسة التفسير في وقت آخر ، حتى يكون الحفظ أثبت ، فإنك إن حفظ المعاني ودرست التفسير في نفس الجلسة فكأنك قمت بالحفظ مرة واحدة ، بينما لو حفظت المعاني وبعد ثماني ساعات أو أكثر راجعت المعاني ودرست التفسير ، فأنت بذلك حفظت مرتين لا مرة واحدة .

وعند دراسة التفسير لا بد أن نقرأ الآية بتدبر قبل دراستها ، وبعدها نتفكّر في معناها بما نستطيع ، ونقوم بتلخيص ما أدانا إليه اجتهادنا في فهم الآية ، ثم نقرأ التفسير ، ونلخص ما فهمناه من التفسير ، مع المقارنة بين فهمنا الأول وبين ما في التفسير . وهذه الطريقة هي أثبت للفهم ، وملخصها تحريك ذهن الدارس إلى ما سيتعلمه قبل تعلُّمه ، وهذا من أساليب التعلُّم الناجحة وا ربة .

وليكن همك في هذه المرحلة أن تفهم وجهاً واحداً للتفسير ، ولكن هذا لا يمنع أن تتوسع في بعض الآيات عند حصول إشكال في فهمها ، ولكن الصبغة الغالبة هي الالتزام بالمنهج .

كيف تقيّم نفسك في هذه المرحلة ؟

وبعد الانتهاء من دراسة التفسير أول مرة ، لا بد من الرجوع مرة ثانية بنفس الطريقة السابقة ، فإن وجدت أن تفسيرك للآية قبل قراءة التفسير مطابق لمعنى التفسير ، وذلك في القرآن كله ، فعندئذ تنتقل إلى المرحلة الثانية ، وإلا فارجع إلى دراسة ما أخطأت فيه من التفسير حتى تتمكن منه .

للفائدة : أسماء بعض الكتب المختصرة في التفسير :

١ - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، للإمام علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨) هـ

٢ - المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، تأليف لجنة القرآن والسنة بوزارة الشؤون الإسلامية بمصر.

٣ - التفسير المختصر الصحيح للدكتور حكمت بشير ياسين (معاصر)

٤ - (التفسير الميسر) تأليف مجموعة من المؤلفين ، إصدار مجمع الملك فهد .

٥ - (التفسير الواضح الميسر) للشيخ محمد بن علي الصابوني .

٦ - (تفسير وبيان) للدكتور محمد حسن الحمصي ، مطبوع على حاشية المصحف ، طباعة دار الرشيد .

المستوى الثاني

- المتطلبات المسبقة لطالب التفسير في المستوى الثاني

١- تحصيل متطلبات المستوى الأول .

٢- دراسة كتاب (مباحث في علوم القرآن) للدكتور مناع القطان . وكتاب (القواعد الحسان في تفسير القرآن) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

٣- دراسة مناهج المفسرين بدراسة كتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله ، قُتل في سبعينيات القرن الماضي ، وقد كان وقتها وزيراً للأوقاف المصرية .

وهناك كتب أخرى : كتاب (تعريف الدارسين بمناهج المفسرين) للدكتور صلاح الخالدي ، وكتاب (مناهج المفسرين) للدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي ، ولكتاب الذهبي مختصر اسمه (مختصر التفسير والمفسرون) للدكتور محمد أبو زيد .

٤- دراسة كتاب في البلاغة مثل (البلاغة الواضحة) للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين .

٥ – دراسة النحو من أحد كتب النحو السهلة ، ومن الكتب الجيدة في هذا ا ـال (النحو الواضح) بأجزائه ، للأستاذين علي الجارم ومصطفى أمين .

٦- دراسة ما لا بد منه في الصرف كاسم الفاعل والمفعول واسم المرة والهيئة ونحو ذلك من الذي لا يسع دارس القرآن جهله ، ويدرسه من (التطبيق الصرفي) للدكتور عبده الراجحي.

كتب التفسير في المستوى الثاني

وأنصح في المستوى الثاني بكتاب (التسهيل لعلوم التنزيل) لابن جُزَي ، وهو تفسير ملخّص جامع للأقوال ، وهو أصل الدراسة في هذا المستوى ، ومعه كتب رديفة وهي :

١- (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) للدكتور حكمت بشير ، وهو : تفسير نقلي .

٢- وتفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، وهو تفسير بياني بلاغي إضافة إلى كونه تفسيراً وشرحاً لآيات القرآن الكريم .

٣- أضف إلى ذلك (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني .

٤- ولا تنسَ معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس .

تعريف موجز بكتب تفسير هذا المستوى

الكتاب الأول (أصل الدراسة) :

وأبدأ بكتاب (التسهيل لعلوم التنزيل) لابن جُزَي الكلبي (٧٤١ هـ) .

يقول ابن جُزَي في بيان منهجه في كتابه : "فإن علم القرآن العظيم هو أرفع العلوم قدراً وأجلها خطراً وأعظمها أجراً وأشرفها ذكراً ، وإن الله أنعم علي بأن شغلني بخدمة القرآن وتعلُّمه وتعليمه ، وشغفني بتفهم معانيه وتحصيل علومه ؛ فاطلعت على ما صنف العلماء -

رضي الله عنهم - في تفسير القرآن من التصانيف المختلفة الأوصاف ، المتباينة الأصناف ، فمنهم من آثر الاختصار ، ومنهم من طول حتى كثر الأسفار ، ومنهم من تكلم في بعض فنون العلم دون بعض ، ومنهم من اعتمد على نقل أقوال الناس ، ومنهم من عول على النظر والتحقيق والتدقيق ، وكل أحد سلك طريقاً نحاه ، وذهب مذهباً ارتضاه ، وكلا وعد الله الحسنى ، فرغبت في سلوك طريقهم والانخراط في مساق فريقهم ، وصنفت هذا الكتاب في تفسير القرآن العظيم وسائر ما يتعلق به من العلوم ، وسلكت مسلكاً نافعاً إذ جعلته وجيزاً جامعاً ، قصدت به أربع مقاصد تتضمن أربع فوائد :

الفائدة الأولى : جمع كثير من العلم في كتاب صغير الحجم تسهيلا على الطالبين وتقريباً على الراغبين ، فلقد احتوى هذا الكتاب على ما تضمنته الدواوين الطويلة من العلم ولكن بعد تلخيصها وتمحيصها وتنقيح فصولها وحذف حشوها وفضولها ، ولقد أودعته من كل فن من فنون علم القرآن اللباب المرغوب فيه دون القشر المرغوب عنه من غير إفراط ولا تفريط ، ثم إني عزمت على إيجاز العبارة وإفراط الاختصار وترك التطويل والتكرار .

الفائدة الثانية : ذكر نكت عجيبة وفوائد غريبة قلما توجد في كتاب ؛ لأنها من نبات صدري وينابيع ذكري ومما أخذته عن شيوخي رضي الله عنهم ، أو مما التقطته من مستظرفات النوادر الواقعة في غرائب الدفاتر .

الفائدة الثالثة : إيضاح المشكلات ، إما بحل العقد المقفلات ، وإما بحسن العبارة ورفع الاحتمالات وبيان ا ـملات .

الفائدة الرابعة : تحقيق أقوال المفسرين السقيم منها والصحيح ، وتمييز الراجح من المرجوح ؛ وذلك أن أقوال الناس على مراتب ، فمنها الصحيح الذي يعول عليه ، ومنها الباطل الذي لا يلتفت إليه ، ومنها ما يحتمل الصحة والفساد ، ثم إن هذا الاحتمال قد يكون متساوياً أو متفاوتاً ، والتفاوت قد يكون قليلاً أو كثيراً ، وإني جعلت لهذه الأقسام عبارات مختلفة تعرف بها كل مرتبة وكل قول : فأدناها ما أصرح بأنه خطأ أو باطل ، ثم ما أقول فيه إنه ضعيف أو بعيد ، ثم ما أقول إن غيره أرجح أو أقوى أو أظهر أو أشهر ، ثم ما

أقدم غيره عليه إشعاراً بترجيح المتقدم ، أو بالقول فيه : قيل كذا . قصداً للخروج من عهدته ، وأما إذا صرحت باسم قائل القول فإني أفعل ذلك لأحد أمرين : إما للخروج عن عهدته وإما لنصرته إذا كان قائله ممن يقتدى به ، على أني لست أنسب الأقوال إلى أصحابها إلا قليلاً ؛ وذلك لقلة صحة إسنادها إليهم ، أو لاختلاف الناقلين في نسبتها إليهم .

وأما إذا ذكرت شيئاً دون حكاية قوله عن أحد فذلك إشارة إلى أني أتقلده وأرتضيه ، سواء كان من تلقاء نفسي أو مما أختاره من كلام غيري ، وإذا كان القول في غاية السقوط والبطلان لم أذكره تنزيهاً للكتاب ، وربما ذكرته تحذيراً منه .

وهذا الذي من الترجيح والتصحيح مبني على القواعد العلمية أو ما تقتضيه اللغة العربية ، وسنذكر بعد هذا باباً في موجبات الترجيح بين الأقوال إن شاء الله ، وسميته كتاب : (التسهيل لعلوم التنزيل) ، وقدمت في أوله مقدمتين : إحداهما في أبواب نافعة وقواعد كلية جامعة ، والأخرى فيما كثر دوره من اللغات الواقعة ، وأنا أرغب إلى الله العظيم الكريم أن يجعل تصنيف هذا الكتاب عملاً مبروراً وسعياً مشكوراً ، ووسيلة توصلني إلى جنات النعيم وتنقذني من عذاب الجحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " (التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جُزَي ، ١/١٠-١١)

أنصحك يا أخي في هذا المستوى الثاني إن لم تستطع التعامل مع تفسير ابن جُزَي ، أنصحك بدراسة أحد مختصرات تفسير ابن كثير (٧٧٤ هـ)، كمختصر (تيسير العلي القدير مختصر ابن كثير) للشيخ نسيب الرفاعي ، أو (عمدة التفسير) للشيخ أحمد شاكر ، أو (ترتيب وتهذيب تفسير ابن كثير) للدكتور صلاح الخالدي .

فإذا أنهيت دراسة مختصر تفسير ابن كثير فعُد مرة أخرى إلى تفسير ابن جُزَي مع الكتب الرديفة له .

ولا أقول بأفضلية تفسير ابن جُزَي على تفسير ابن كثير ، ولكن لكل تفسير مزية ، فابن كثير يهتم بتفسير القرآن بالقرآن ، ويهتم بجمع الروايات ، وأما ابن جُزَي فيهتم بجمع الأقوال وبالمعنى التحليلي للنص القرآني أكثر من اهتمام ابن كثير بهذا الجانب.

وتأمّل معي المقارنة بين التفسيرين في مثال اخترته مما فيه خلاف في تفسيره ، قال تعالى (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)) (المرسلات)

قال ابن كثير : "قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ سَهْلٍ الْمَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ وَاقِدٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هريرة وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً قال: الملائكة ، وَرُوِيَ عَنْ مَسْرُوقٍ وَأَبِي الضُّحَى وَمُجَاهِدٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّهُ قَالَ: هِيَ الرُّسُلُ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ، وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات أَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ عَنْ مُسْلِمٍ الْبَطِينِ عَنْ أَبِي الْعُبَيْدَيْنِ قال: سألت ابن مسعود عن المرسلات عُرْفًا قَالَ: الرِّيحُ.

وَكَذَا قَالَ فِي (فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً وَالنَّاشِراتِ نَشْراً) : إِنَّهَا الرِّيحُ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَأَبُو صَالِحٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ .

وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً) هَلْ هِيَ الْمَلَائِكَةُ إِذَا أُرْسِلَتْ بِالْعُرْفِ أَوْ كَعُرْفِ الْفَرَسِ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَوْ هِيَ الرِّيَاحُ إِذَا هَبَّتْ شَيْئًا فَشَيْئًا؟ وَقَطَعَ بِأن العاصفات عصفاً الرِّيَاحُ كَمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَمَنْ تَابَعَهُ، وممن قال ذلك في العاصفات عصفاً أَيْضًا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالسُّدِّيُّ .

وَتَوَقَّفَ فِي الناشرات نَشْرًا هَلْ هِيَ الْمَلَائِكَةُ أَوِ الرِّيحُ كَمَا تَقَدَّمَ؟ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ أَنَّ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا هي الْمَطَرُ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرْسَلَاتِ هِيَ الرِّيَاحُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) [الْحِجْرِ: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) [الْأَعْرَافِ: ٥٧] وَهَكَذَا الْعَاصِفَاتُ هِيَ الرِّيَاحُ، يقال عصفت الرياح إِذَا هَبَّتْ بِتَصْوِيتٍ، وَكَذَا النَّاشِرَاتُ هِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي تَنْشُرُ السَّحَابَ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ كَمَا يشاء الرب عز وجل.

وقوله تعالى: (فَالْفارِقاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً) يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ. قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمَسْرُوقٌ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّيُّ وَالثَّوْرِيُّ، وَلَا خِلَافَ هَاهُنَا فَإِنَّهَا تَنْزِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى الرُّسُلِ تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى وَالْغَيِّ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُلْقِي إِلَى الرُّسُلِ وَحْيًا فِيهِ إِعْذَارٌ إِلَى الْخَلْقِ وَإِنْذَارٌ لَهُمْ عقاب الله إن خالفوا أمره" (تفسير ابن كثير ط العلمية ، ٨/ ٣٠٢)

وقال ابن جُزَي في تفسير الآيات : " اختلف في معنى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات على قولين :

أحدهما : أنها الملائكة ، والآخر : أنها الرياح ، فعلى القول بأنها الملائكة سماهم المرسلات لأن الله تعالى يرسلهم بالوحي وغيره ، وسماهم العاصفات لأنهم يعصفون كما تعصف الرياح في سرعة مضيهم إلى امتثال أوامر الله تعالى ، وسماهم ناشرات لأنهم ينشرون أجنحتهم في الجو وينشرون الشرائع في الأرض أو ينشرون صحائف الأعمال ، وسماهم الفارقات لأنهم يفرقون بين الحق والباطل .

وعلى القول بأنها الرياح ، سماها المرسلات ؛ لقول الله (الذي يرسل الرياح) وسماها العاصفات من قوله (ريح عاصف) أي : شديدة ، وسماها الناشرات لأنها تنشر السحاب في الجو ، ومنه قوله (يرسل الرياح فتثير سحاباً) ، وسماها الفارقات لأنها تفرق بين السحاب ومنه قوله (فيجعله كسفاً) . وأما الملقيات ذكراً فهم الملائكة لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام .

والأظهر في المرسلات والعاصفات أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة .

والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة ؛ لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح ولأن الملقيات المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد أنها الرياح ؛ ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال والمرسلات فالعاصفات ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال والناشرات ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء .

وقد قيل : في المرسلات والملقيات أنهم الأنبياء عليهم السلام .

(عُرْفاً) معناه : فضلاً وإنعاماً ، وانتصابه على أنه مفعول من أجله ، وقيل معناه متتابعة ، وهو مصدر في موضع الحال ، وأما عصفاً ونشراً وفرقاً فمصادر ، وأما ذكراً فمفعول به.

(عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) العذر فسره ابن عطية وغيره بمعنى إعذار الله إلى عباده ؛ لئلا تبقى لهم حجة أو عذر ، وفسره الزمخشري بمعنى الاعتذار ، يقال : عذر إذا محا الإساءة .

وأما نذراً فمن الإنذار وهو التخويف ، وقرئ بضم الذال في الموضعين وبإسكانها ، ويحتمل أن يكونا مصدرين فيكون نصبهما على البدل من ذكراً أو مفعولاً بذكر ، أو يحتمل أن يكون عذراً أجمع عذير أو عاذر ، ونذراً جمع نذير فيكون نصبهما على الحال" (التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزَي ، ٣/ ٢٦٧)

فأنت ترى الفرق بين الأسلوبين ، ولك الحكم بعد التأمُّل ، ولكن لو تأمَّلت ملياً في سبب ترجيح ابن جُزَي لرأيته حسناً ، فإن الاختلاف بالعطف يدل على أن القسم كان بشيئين وليس شيئاً واحداً ، (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)) وهذا القسم الأول ، (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)) القسم الثاني ، ويأتي جواب القسم (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) ، فهما قسمان بالرياح والملائكة ؛ قال ابن حيان "والذي أراه أن المقسَم به شيئان ، ولذلك جاء العطف بالواو في (والنَّاشِراتِ) ، والعطف بالواو يشعر بالتغاير" (تفسير البحر المحيط ، لابن حيان ، (٨/ ٣٩٦)

وأنا لا أريد في هذا المقام أن أتوسّع في الترجيح ، ولكنه استطراد للتعمّق في المقارنة بين الأسلوبين .

الكتاب الثاني (رديف لكتاب التسهيل لعلوم التنزيل) :

وهو كتاب (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور) ، وعن منهجه يقول مؤلفه الدكتور حكمت بن بشير : "وقد قمت بجولة علمية باحثاً عن الكتب المتعلقة بهذا المشروع، فاستكملت مكتبتي حسب الحاجة، وجمعت ما تفرق من الشوارد والفرائد من تحضيراتي وتقييداتي الصالحة لهذا الباب، حيث انتخبت منها الصفو واللباب، ورتبتها حسب سور القرآن الكريم وآياته، ثم بدأت بالتفسير مصدراً السورة بفضائلها إن صحت الرواية، ثم بتفسير القرآن بالقرآن إن وجد وهو قمة البيان ، وغالباً ما أعتمد على كتاب أضواء البيان ثم تفسير ابن كثير وتفسير القاسمي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن قال قائل: فما أحسن طريق التفسير؟ فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له .

وقد سلكت هذا الطريق متحرياً ما ثبت عن رسوله الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل : "ألا إني أوتيت هذا الكتاب ومثله معه" ، وقدمت ما اتفق عليه الشيخان في صحيحيهما، ثم ما انفرد به أحدهما ولا داعي لتخريج الحديث من مصادر أخرى لأن هدفي من التخريج التوصل إلى صحة الحديث وكفى بإطباق الأمة على صحتهما.

.... فإذا لم أجد حديثاً مرفوعاً فأرجع إلى أقوال الصحابة الذين شهدوا التنزيل ..... أما إذ وجدت الحديث المرفوع الثابت فقد أسوق معه بعض أقوال الصحابة الثابتة إذا كان فيها زيادة فائدة ، وإذا لم يكن فيها فأكتفي بما ثبت من الحديث الشريف، وقد أوردت أقوال الصحابة رضوان الله عليهم بأصح الأسانيد عنهم ، علماً بأن بعض الأحاديث لا يندرج تحت التفسير مباشرة وإنما لها علاقة وتناسب مع الآية المراد تفسيرها .... فإذا لم أعثر على قول صحابي فحينئذ ألجأ إلى ما ثبت من أقوال التابعين...." (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ١/٣١- ٣٣)

الكتاب الثالث (رديف لكتاب التسهيل لعلوم التنزيل) :

وهو تفسير أبي السعود (٩٨٢ هـ) المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، وعن منهجه يقول مؤلفه : " أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعاني وتشييد المباني وتبيين المرام وترتيب الأحكام حسبما بلغهم من سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام ، وأما المتأخرون المدققون فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة وإبداء خباياه الفائقة ؛ ليعاين الناس دلائل إعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية والزبر العظيمة السبحانية ، فدونوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الأعيان ، وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الأذهان ، لا سيما (الكشاف) و(أنوار التنزيل) المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل ، فإن كلاً منهما قد أحرز قصب السبق أيَّ إحراز ، كأنه مرآة لاجتلاء وجه الإعجاز ، صحائفهما مرايا المزايا الحسان ، وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقبان .

ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهور والأعوام أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما في سمط دقيق ، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ، وأضيف إليها ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع حسبما يقتضية جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ما سنح الفكر العليل بالعناية الربانية وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية من عوارف معارف يمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب وغرائب رغائب ترنوا إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الإقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام في معارك أفكار يشتبه فيها الشؤن ، ومدارك أنظار يختلط فيها الظنون " (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١/٤ - ٥)

الكتاب الثالث : (كتاب رديف في فهم مفردات القرآن)

وهو كتاب (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) ، وهو كتاب يبين المعنى العميق للمفردة القرآنية ، وعندما تجد نفسك لم تكتف من بيان معنى المفردة القرآنية ، يمكنك الرجوع إلى المعاجم اللغوية .

وهذا مثال منه " أفك: الإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ومنه. قيل للرياح العادلة عن المهاب مؤتفكة .

قال تعالى (والمؤتفكات بالخاطئة) وقال تعالى (والمؤتفكة أهوى) وقوله تعالى: (قاتلهم الله أنى يؤفكون) أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ومن الصدق في المقال إلى الكذب ومن الجميل في الفعل إلى القبيح ، ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من أفك - أنى يؤفكون) وقوله (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا.

وقال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وقال: (لكل أفاك أثيم) وقوله: (أئفكا آلهة دون الله تريدون) فيصح أن يجعل تقديره

أتريدون آلهة من الإفك، ويصح أن يجعل إفكاً مفعول تريدون ويجعل آلهة بدلاً منه ويكون قد سماهم إفكاً، ورجل مأفوك مصروف" (مفردات ألفاظ القرآن) للأصفهاني ، ص: ١٩)

الكتاب الرابع : (كتاب رديف في فهم مفردات القرآن)

وهو معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس (٣٩٥ هـ)، فهو معجم يهتم برد اشتقاقات المادة الواحدة إلى معنى أو معان تجمعها . وهذا مثال منه : "

(أفك) الهمزة والفاء والكاف أصل واحد، يدلُّ على قلب الشيء وصرْفِه عن جِهَته. يقال أُفِكَ الشَّيءُ. وأَفِكَ الرّجُلُ، إذا كذَب . والإفك الكذِب. وأفكتُ الرّجُلَ عن الشيء،

إذا صرفتَه عنه. قال الله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا} [الأحقاف ٢٢]. وقال شاعر :

إن تكُ عن أفضل الخليفةِ مَأْ *** فُوكاً ففي آخَرِينَ قد أُفِكُوا

والمؤتفكات: الرياح التي تختلف مَهابُّها ؛ يقولون: "إذا كثُرت المؤتفكات زَكَتِ الأرض". معجم مقاييس اللغة (١/ ١٢٥):

طريقة الدراسة التفصيلية

وأما عن طريقة الدراسة التفصيلية لتفسير (التسهيل لعلوم التنزيل) فيمكن إجمالها في ما يلي :

أولاً: يقرأ الدارس الآية أو الآيات ، ويستحضر خلال قراءته المعاني التي درسها في المرحلة الأولى ، وبعد ذلك يقرأ ما كتبه ابن جُزَي في تفسير الآيات ، وليس مطلوباً من الدارس في هذه المرحلة الانشغال بترجيح الأقوال عند تعددها ، بل المطلوب معرفة ما قيل في الآية ، وخلال الدراسة يرجع الدارس إلى كتاب (الصحيح المسبور) فيما يتعلق بالتفسير النقلي ، ويرجع إلى تفسير أبي السعود فيما يتعلق باللغة والبيان ، ويرجع فيما يتعلق بالمعاني وفقه الكلمة إلى معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس ، هذا إن لم يجد ضالته في كتاب (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني ، فإن لم يجد ضالته أيضاً معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس فأمامه كل التفاسير وكل المعاجم .

ولا تنسَ أن تسجل الملاحظات المهمة على هامش تفسير (التسهيل لعلوم التنزيل) حتى تسهل المراجعة ، ولا تسجل كل شيء بل ما تراه مفيداً ، وليس عليك حفظ كل ما قيل في الآية ، بل تحفظ الأوجه الوجيهة ، وإن لم تستطع اختياراها فاحفظ الأوجه المشهورة ، وتعرفها بإشارة المفسر إلى شهرتها ، أو عن طريق ملاحظة تكرارها في كتب التفسير الأخرى ، أو أن القائل من العلماء المشهورين المتبعين بالتفسير .

وأما الفوائد التي تراها مفيدة وهي غير لصيقة بمعاني الآيات ، فلا ضير أن تجعل كرّاسة تجمع فيها هذه الفوائد ، مع تصنيفها الذي تراه أنه يسهل عليك الرجوع إلى المعلومة ، كأن تصنف فوائد النحو في مكان والصرف في مكان والبلاغة كذلك .... أو أنك تصنف الفوائد وفق ترتيب السور ، فتكتب (الفوائد الملحقة بتفسير سورة الإنسان) وهكذا ....

وبعد الانتهاء من دراسة تفسير الآيات من (التسهيل لعلوم التنزيل) وبعد البحث عن الزيادات التي تريدها ، يأتي الدور الختامي بقراءة الآيات - مرة أخرى - على مهل بتدبر ، مع استحضار كل ما جمعته من تفسير الآية .

أما عن مقدار البحث والجمع ، فهو يعتمد على الحرص والفراغ والصحة والقدرات العقلية والمعلومات المسبقة من العلوم التي تتصل بالتفسير ، وكلما ارتفعت نسبة هذه الأشياء كلما زاد البحث .

كيف تقوّم نفسك في هذه المرحلة ؟

وبعد الانتهاء من دراسة القرآن أول مرة ، لا بد من الرجوع مرة أخرى ، مع استحضار ما جمعته سابقاً على هامش (التسهيل لعلوم التنزيل) ، فإن وجدت أن تفسيرك للآية قبل قراءة التفسير مطابق لمعنى التفسير الذي انتهيت إليه مع استحضار ما قيل في الآية من الأقوال الوجيهة أو المشهورة ، وذلك في القرآن كله ، فعندئذ تنتقل إلى المرحلة الثالثة ، وإلا فارجع إلى دراسة التفسير حتى تتمكن منه .

أثر المذاكرة مع طلاب العلم

ا لمذاكرة بالقرآن خير ا لمذاكرة ، والكلام في تفسيره من أطيب الكلام ، وإن أنفاساً كانت لأجل القرآن لأنفاس مباركة ، وإن خطىً سعت لأجله لخطى مرضية ، وإن من أثبت ما يُثبّت به تفسير القرآن ا لمذاكرة فيه والتدبر في معانيه .

وفي الحديث الضعيف ، ولكن معناه طيب : "كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ

ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ المتينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: ٢] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٧٢)

(التطبيق العملي للمستوى الثاني)

تفسير قوله تعالى : {وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)} [الضحى: ١ - ٤]

قال ابن جُزَي : "والضحى ذكر في الشمس وضحاها والليل إذا سجى فيه أربعة أقوال :

إذا أقبل وإذا أدبر وإذا أظلم وإذا سكن أي استقر واستوى أو سكن فيه الناس والأصوات ومنه ليلة ساجية إذا كانت ساكنة الريح وطرف ساج أي ساكن غير مضطرب النظر وهذا أقرب في الاشتقاق وهو اختيار ابن عطية ما ودعك ربك وما قلى بتشديد الدال من الوداع وقرئ بتخفيفها بمعنى ما تركك والوداع مبالغة في الترك وما قلى أي ما أبغضبك وحذف ضمير المفعول من قلى وآوى وهدى وأغنى اختصارا لظهور المعنى ولموافقة رؤس الآي وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي فقالت قريش إن محمدا ودعه ربه وقلاه فنزلت الآية تكذيبا لهم وقيل رمى علية الصلاة والسلام بحجر في أصبعه فدميت فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم فقالت امرأة ما أرى شيطان محمد إلا قد تركه فنزلت الآية ولا الآخرة خير لك من الأولى أي الدار الآخرة خير لك من الدنيا قال ابن عطية ويحتمل أن يريد بالآخرة حاله بعد نزول هذه السورة ويريد بالأولى حاله قبل نزولها وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر " (التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جُزَي (٢/٤٩٠)

قال أبو السعود : " والضحى ، هُوَ : وقتُ ارتفاعِ الشمسِ وصدرُ النهارِ . قالُوا تخصيصُهُ بالإقسامِ بهِ لأنَّها الساعةُ التي كلَّم فيهَا مُوسَى عليهِ السلامُ وألقَى فيهَا السحرةُ سُجدّاً لقولِه تعالَى {وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى} ، وقيلَ أريدَ بهِ النهارُ كمَا في قولِه تعالَى {أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى} في مقابلةِ بياتاً .

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) (٢) والليل ، أيْ جِنْسِ الليلِ ، (إِذَا سجى) أيْ سكنَ أهلُه أو ركدَ ظلامُه ، من سَجَا البحرُ سَجْواً . إذَا سكنَتْ أمواجُهُ ، وَنُقِلَ عن قتادةَ ومقاتلٍ وجعفرٍ الصَّادقِ أنَّ المرادَ بالضُّحَى هُوَ : الضُّحى الذي كلَّمَ الله تعالَى فيهِ مُوسَى - عليهِ السلامُ - وبالليلِ ليلةُ المعراجِ .

وقولُه تعالَى (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) (٣)

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) جوابُ القسمِ ، أيْ : ما قطعكَ قطعَ المودعِ . وقُرِىءَ بالتخفيفِ ، أيْ : ما تركَكَ . (وَمَا قلى) أيْ : ومَا أبغضكَ ، وحَذفُ المفعولِ إما للاستغناءِ عنْهُ بذكرِهِ من قبلُ ، أو للقصدِ إلى نفي صدورِ الفعلِ عنْهُ تعالَى بالكليةِ مع أنَّ فيهِ مراعاةً للفواصلِ .

رُوي أنَّ الوحيَ تأخرَ عن رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - أياماً لتركِه الاستثناءَ كما مَرَّ في سُورةِ الكهفِ ، أو لزجرِهِ سائلاً ملحاً فقالَ المشركونَ : إنَّ محمداً ودعَهُ ربُّهُ وقلاَهُ فنزلتْ رَدًّا عليهم وتَبْشيراً لهُ عليهِ - الصلاةُ والسلامُ - بالكرامةِ الحاصلةِ والمترقبةِ كما يُشعِرُ به إيرادُ اسمِ الربِّ المنبِىءِ عنِ التَّربيةِ والتبليغِ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلامُ ، وحيثُ تضمنَ ما سبقَ من نفي التوديعِ والقِلَى أنَّه تعالى يواصلُه بالوَحْي والكرامةِ في الدُّنيا بشرهُ عليهِ - الصلاةُ والسلامُ - بأنَّ مَا سيؤتيه في الآخرةِ أجلُّ وأعظمُ من ذلكَ ، فقيلَ (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) (٤) لما أنَّها باقيةٌ صافيةٌ عنِ الشوائبِ على الإطلاقِ وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارِّ ، وما أُوتي - عليهِ الصَّلاة والسَّلام - من شرفِ النبوةِ وإنْ كانَ مما لا يعادلُه شرفٌ ولاَ يدانيه فضل ، لكنَّهُ لا يخلُو في الدُّنيا من بعضِ العوارضِ الفادحةِ في تمشيةِ الأحكامِ معَ أنَّه عندَمَا أعدَّ له - عليه الصلاة والسلام - في الآخرةِ من السبقِ والتقدمِ على كافةِ الأنبياءِ والرسلِ يومَ الجمعِ ، يَوْمَ يقوم الناس لرب العالمين ، وكونُ أمتِه شهداءَ على سائرِ الأممِ ، ورفعُ درجاتِ المؤمنينَ وإعلاءُ مراتبِهم بشفاعتِه وغيرُ ذلكَ من الكراماتِ السَّنيةِ التي لا تحيطُ بهَا العبارةُ بمنزلةِ بعضِ المبادىء بالنسبةِ إلى المطَالبِ ، وقيلَ المرادُ بالآخرةِ عاقبةُ أمرِه عليه الصلاة والسلام ، أي : لنهايةُ أمركَ خيرٌ من بدايتِه لا تزالُ تتزايدُ قوةً وتتصاعدُ رفعةً" (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٦/ ٤٣٩-٤٤٠)

جاء في (الصحيح المسبور) : "سورة الضحى ... نزولها

قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الأسود بن قيس قال: سمعت جُندب بن سفيان - رضي الله عنه - قال: اشتكى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركَكَ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله عز وجل: (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى).

(الصحيح ٨/٥٨٠-٥٨١ - ك التفسير - سورة الضحى، الآية ح٤٩٥٠)، وأخرجه مسلم (الصحيح ٣/١٤٢١-١٤٢٢ ح١٧٩٧ - ك الجهاد والسير، ب ما لقي النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من أذى المشركين والمنافقين).

قوله تعالى (وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة (والضحى) قال: ساعة من ساعات النهار.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة (والليل إذا سجى) قال: سكن بالخلق.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (ما ودعك ربك وما قلى) يقول: ما تركك ربك ، وما أبغضك.

قوله تعالى (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى)

قال ابن ماجة: حدثنا يحيى بن حكيم، ثنا أبو داود، ثنا المسعودي أخبرني عمرو ابن مرة عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: اضطجع النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على حصير فأثَّر في جلده فقلت: بأبي وأمي، يا رسول الله! لو كنتَ آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئا يقيك منه! فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "ما أنا والدنيا ! إنما أنا والدنيا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها".

(السنن - الزهد - ب مثل الدنيا ح٤١٠٩)، أخرجه أحمد والترمذي من طريق المسعودي به نحوه، وقال الترمذي: حسن صحيح، (المسند ٣٩١/١)، (السنن - الزهد ٥٨٨/٤، ٥٨٩). وللحديث شاهد عن ابن عباس عند ابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، وسكت الذهبي. ولذا صححه الألباني (انظر الصحيحة ٤٣٩، ٤٤٠)" (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (٤/ ٦٤٣)

وكيفية الدراسة التي سبق بيانها تتلخص في ما يلي :

أولاً : دراسة (التسهيل لعلوم التتنزيل) دراسة واعية .

ثانياً : في حالة شعور الدارس أنه يريد المزيد ، فعليه أن يتأمَّل ، هل يريد المزيد في فهم التركيب اللغوي ؟ وعندها يرجع إلى تفسير أبي السعود .

وإذا رأى الدارس أنه يريد المزيد في فهم سبب النزول فإنه يرجع إلى كتاب (الصحيح المسبور) ، وإذا أراد التوسع في فهم المفردة القرآنية أكثر فإنه يرجع إلى (مفردات ألفاظ القرآن) أو (مقاييس اللغة) أو غير ذلك من المعاجم اللغوية .

ثالثاً : بعد رجوع الدارس إلى ما ذُكر ، يختار الدارس ما يناسبه ويسجله على هامش تفسير (التسهيل) حتى تكون الفائدة مجموعة في مكان واحد .

وما سبق من اقتباسات فإنما هو نموذج لتطبِّق عليه أخي الدارس هذه الخطوات ، فابدأ على بركة الله ، والله الموفق !

المستوى الثالث

وهو مستوى البحث والتوسع والاجتهاد ، ويكون ذلك بجمع الأقوال والمقارنة والجمع بين الأقوال والترجيح والاجتهاد ؛ ولذا لن أوفيه حقه ؛ لأن هذا المستوى يعني دراسة كل ما تستطيع من التفسير وعلوم القرآن وما هو متعلق بهما ، ولذا ما سأذكره هو نموذج مصغّر وليس على سبيل الاستقصاء .

وبإمكان من كان دارساً في المستوى الثاني ممارسة الاجتهاد والبحث إذا كان مُتِمّاً لمتطلبات المستوى الثالث ، فقد يكون طالب العلم متقناً لعلوم القرآن ومباحثه ومتوسعاً فيه ، وذو باع في اللغة والفقه وأصوله ، وفي كل متطلبات المستوى الثالث ، ولكنه لم يتقن دراسة تفاسير المستوى الثاني ، فمثله يستطيع التوسع والبحث التفسيري ، وذلك بالتزامن مع دراسة تفاسير المستوى الثاني ، وإن كان هذا السلوك يشوش على طالب العلم ، ولكنه ممكن وجائز .

- المتطلبات المسبقة لطالب التفسير في المستوى الثالث

١- إكمال متطلبات المستوى الثاني

٢- الدراسة الموسّعة في كتب علوم القرآن ، وأذكر بعضها : كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني مع كتاب (مناهل العرفان – دراسة وتقويم) للدكتور خالد السبت ، و(إتقان البرهان) للدكتور فضل حسن عباس رحمه الله ، و(البرهان) للزركشي و(الإتقان) للسيوطي ، مع التوسع في كل ما كتب في مباحث علوم القرآن .

٣- دراسة قواعد التفسير والترجيح ، وهي منثورة في أصول الفقه وعلوم اللغة وعلوم القرآن ومصطلح الحديث ، فمن تمكن من هذه العلوم تمرّس في دراسة كتب السابقين المحققين ، فإنه يجد ما كُتب في قواعد الترجيح من المعلوم عنده . ويدرس في هذا ا ال كتاب

(قواعد التفسير) للدكتور خالد السبت ، و(قواعد الترجيح عند المفسرين) للدكتور حسين الحربي ، وغيرهما من الكتب .

٢- كتب إعجاز القرآن ، أذكر منها (التبيان في إعجاز القرآن) للدكتور صلاح الخالدي .

٣ – في التفسير الموضوعي ، أذكر على سبيل المثال : (التفسير الموضوعي) للدكتور صلاح الخالدي ، و(التفسير الموضوعي دراسة تاريخية نقدية) لمحمد محمود بني دومي ، وهي رسالة ماجستير في الجامعة الأردنية ، ولا أعلم إن كانت هذه الرسالة قد طُبعت ، وهي رسالة عرض فيها الباحث أشهر ما كُتب في تأصيل التفسير الموضوعي ، مع عرض منهج تلك الكتب مع النقد .

٣- أن يكون متقناً لأصول الفقه ودلالات الألفاظ متمرناً ومتمرساً ، ويتبع في هذا مستويات دراسة أصول الفقه ، وليس هذا مكان تفصيلية .

٤- دراسة النحو ، ويدرس في هذا كتاب (قطر النَّدى وبل الصدى) لابن هشام مع الاطلاع على الكتب الأخرى عند الحاجة .

٥- دراسة كتب البلاغة ، وأذكر منها كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس ، بجميع أقسامه : المعاني والبيان والبديع ، و كتاب (إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني) للدكتور صلاح الخالدي ، وكذلك كتب الدكتور فاضل السامرائي ، أذكر منها : (أسئلة بيانية) (لمسات بيانية) (معاني الأبنية العربية) (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)و(على طريق التفسير البياني) كلها للدكتور فاضل . وغير ذلك من كتب البلاغة القرآنية .

والتوسع في علم المعاني خصوصاً يمكّن الدارس من فهم الدلالات القرآنية بدقة ، ويليه علم البيان ؛ قال الزمخشري : "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران في علم

الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه ، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما : علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ ..." (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ج١ / ٢)

وقد تعقّب بعض العلماء الزمخشري في كلامه ، وردّ عليه ، واعتبر قوله خطأ فاحشاً ، فقال السيوطي دفاعاً عن قول الزمخشري :

"فعُرف أن للزمخشري مقصداً غير ما فهمه المعترض، ومنحى لا ينخدش بما ذكره المتعقب ولا ينتقض.

وقد كان الصحابة يعرفون هذا المعنى بالسليقة، وبه قامت عندهم المعجزة على الحقيقة، فاهتدوا بسببه إلى أقوم طريقة ، ألم يثبت عن جبير بن مطعم أنه قال: أتيت النبي - صلى الله عليه وسلّم - في فداء أسرى بدر فوجدته يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) [سورة الطور ٣٥] كاد قلبي يطير وأدركه الإسلام .. [١]

فكانوا يعرفون بالطبع وجوه بلاغته كما كانوا يعرفون وجوه إعرابه، ولم يحتاجوا إلى بيان النوعين في ذلك العصر؛ لأنه لم يكن يجهلهما أحد من أصحابه ، فلما ذهب أرباب السليقة والتبس الإعراب باللحن، وا ـاز بالحقيقة وضع لكل من الإعراب والبلاغة قواعد يدرك بها ما أدركه الأولون بالطبع وتُساعد، فكان حكم علم المعاني والبيان كحكم علم

١ - رواه البخاري (٦/ ١٤٠)

النحو والإعراب، وكانت الحاجة إليهما داعية لإدراك وجه الإعجاز والإعراب. " (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي ١/ ٨-٩)

وليس المقصود من دراسة علم (المعاني ، والبيان ، والبديع) الاستغراق في حفظ المصطلحات والمتون والشروح ، بل المقصود هو تمرين العقل لفهم دقائق النصوص ، فكم ممن درّب عقله بالممارسة والتدبر والتأمل – وهذا بعد دراسة علوم البلاغة – فأجاد وأحسن ، وكم ممن بذل عمره في حفظ كثير من المتون والشروح والاصطلاحات فلم يبلغ من العلم إلا ذاك ، فكان كمن درس كتباً لا علماً .

٦- المعرفة بعلم القراءات ، وكيفية التأكّد من القراءة ، والمهم للمفسر في علم القراءات ما له تأثير بالمعنى ، أو غيّر في بنية الكلمة أو ضبطها وإن لم يكن له تغيير بالمعنى . ومن الكتب التي يرجع إليها المفسّر كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري ، وغير ذلك من الكتب .

٧ – أن يكون على درجة راقية من علم الفقه حتى لا يقع في أخطاء الاستنباطات الفقهية ، ومن الكتب التي يرجع إليها الفقيه في هذا ا ـال : تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن) ، علماً أن البحث الفقهي لا بد فيه من الرجوع إلى مراجع الفقه .

٨- أن يكون متصلاً بالعلوم الأخرى ، كعلوم الأرض والفلك ووظائف الجسم والسياسة وغير ذلك ، والمطلوب في ذلك الثقافة العامة ، لأن مواضيع آيات القرآن متنوعة.

طريقة الدراسة والبحث في هذا المستوى

وفي مرحلة البحث والتوسع والاجتهاد ، في هذه المرحلة لا بد من الرجوع إلى كل موطن فيه فائدة ، سواء من كتب التفسير أو علوم القرآن أو اللغة أو غير ذلك .

الخطوة الأولى : يدرس تفسير (جامع البيان) المشهور باسم (تفسير الطبري) (٣١٠ هـ) ، ومعه كتاب (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور (١٣٩٣ هـ /١٩٧٣م) ، لأن تفسير الطبري يجمع بين الاستنباط والأثر ، وتفسير (التحرير والتنوير) يجمع في تضاعيفه مجموعة من التفاسير التي تهتم باللغة بكافة فروعها .

الخطوة الثانية : التوسع في دراسة التفاسير الأخرى مع المقارنة والعناية بدراسة الأحاديث صحة وضعفاً ، والتعمّق في فقه الكلمة القرآنية عن طريق (مفردات الراغب ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والمعاجم اللغوية)

ومن الكتب التي ينصح أن يركّز عليها طالب العلم عند البحث والدراسة في هذه المرحلة :

١- تفسير الطبري (٣١٠ هـ) ، وتفسير ابن كثير (٧٧٤ هـ) . (المنهج الجامع بين الاستنباط والنقل)

٢- تفسير الزمخشري (٥٣٨ هـ) ، والبيضاوي (٤٩٨ هـ) ، وأبو السعود (٩٨٢ هـ) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٩٣ هـ /١٩٧٣م) ، وكذلك تفسير (اللباب في علوم الكتاب) لابن عادل الدمشقي (تقريباً ٨٨٠ هـ) . (المنهج اللغوي)

٣- تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب (١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م). (المنهج الدعوي)

٤- تفسير القرطبي (٦٧١ هـ) المسمى (الجامع لأحكام القرآن) . (المنهج الفقهي)

٥- كتاب (الجدول في إعراب القرآن) لمحمود صافي (المتوفى : ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م) ، وكتاب (إعراب القرآن وبيانه) لمحيي الدين درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) . (كتب حديثة في إعراب القرآن كتبت بأسلوب مناسب لعصرنا) .

٦- (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) ، و(عمدة الحفاظ) للسمين الحلبي (٧٥٦ هـ) ، و(مقاييس اللغة) لابن فارس (٣٩٥ هـ) ، و(المعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم) للدكتور محمد حسن جبل .

أضف إلى ذلك كل التفاسير وكل المعاجم وكل الدراسات القرآنية الشرعية أو اللغوية، والذي يعتمد التوسع في الاطلاع عليها إلى همة الباحث .

والمقصود بذكر المنهج هو ما يغلب على التفسير دون نفي وجود الخصائص الأخرى في التفسير .

ولن أبين مناهج التفسير في هذه الكتب ؛ لأن من بلغ في الدراسة هذه المرحلة فإنه لا بد أن يكون قد درس مناهج المفسرين وتوسعت معرفته وأصبح ذا نظرة ثاقبة وتجربة خاصة.

- الخطوات التفصيلية للاجتهاد في التفسير

أولاً : لا بد من فهم الآية من تفسير الطبري وابن عاشور .

ثانياً : جمع ما قيل في تفسير الآية وفق خطة يراها الباحث ، وهذه الخطة ناشئة من اجتهاداته في مناهج التفسير ، ووفق ثقته ببعض التفاسير دون بعض .

ثالثاً : المقارنة بين ما جُمع ، وأفضل طريقة هي تقسيم الآية إلى نقاط بحثية ، يسجل الباحث أمام كل نقطة ما يريد ، وبعد الانتهاء من البحث يقارن بين ما جمعه عن كل نقطة

، ثم يختار ما يريد من ذلك ، وبعد الاختيار يقوم الباحث بصياغة ما اختاره ، وبهذا تخرج النسخة النهائية للجمع والمقارنة .

رابعاً : الجمع بين الأقوال الواردة في الآية وفق أحد وجوه الجمع المعتبرة ، وأن لا يكون الجمع متكلَّفاً ، ففي بعض الآيات تتعدد أقوال المفسرين ، ويكون الباحث قد سجلها في مرحلة الجمع والمقارنة ، وبعد ذلك ينظر الباحث في هذه الأقوال محاولاً الجمع المقبول وليس المتكلف ، فقد تكون الأقوال من باب التمثيل ، وقد تكون من باب التنصيص على بعض أفراد العام ، وغير ذلك من وجوه الجمع الكثيرة .

خامساً : وإن لم يمكن الجمع فيلجأ المفسِّر إلى الترجيح وفق قواعد الترجيح عند المفسرين ، ولا يلجأ المفسِّر إلى الترجيح قبل الجمع ؛ لأن إعمال الأقوال أولى من الإهمال ، فما دامت الأقوال لا تتعارض فلماذا نردُّها ؟!

سادساً : وفي كل هذه المراحل لا بد من إعمال قدرة العقل النقدية والاستفهامية تزامناً مع الجمع والمقارنة والترجيح ، ولا بد أن تقرأ وأنت تمحص ، وأن تتقمص شخصية من يسأل عن كل شيء حول الآية ، وهذا كله بعد امتلاك ما يلزم ذلك من علوم اللغة والعقيدة والفقه والبلاغة وغير ذلك . وفي نهاية الأمر ما نحن إلا بشر نصيب ونخطئ ، ولا نستطيع الإحاطة بكل روائع القرآن . والله الموفق .

(الجانب التطبيقي للمستوى الثالث)

تفسير الآية :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (سورة النحل : ٩٠)

وبعد جمع ما قيل في الآية والمقارنة والجمع بين الأقوال والترجيح والاجتهاد والصياغة اللغوية السهلة ، يظهر عندنا نموذج للمستوى الثالث :

النموذج وهو مقتبس من كتاب (التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني) للمؤلف .

نموذج التفسير في المستوى الثالث

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل : ٩٠)

بين يدي الآية :

سورة النحل مكية إلا قوله تعالى [وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ] (النحل : ١٢٦) .

فعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ .

فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ : لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ قَالَ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى [وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ] (النحل : ١٢٦).

فَقَالَ رَجُلٌ : لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً .

وهو حديث حسن .

رواه (الترمذي : ٣٠٥٤) وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أُبي بن كعب ، وبنفس سند الترمذي رواه النسائي في (السنن الكبرى) .

ورواه أيضاً عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٢٠٢٨٠) (٢٠٢٨١) ، ابن حبان في (صحيحه ج٢/ص٢٣٩) ، الحاكم في (المستدرك على الصحيحين ج٢/ص٤٨٤) ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، كلهم عن عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب . مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

- لما بيّنت الآية السابقة أن القرآن أُنزل (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) ، أتت هذه الآية – وما بعدها - لتبين أن في القرآن بياناً لكل شيء يحتاجه الناس .

فالقرآن يأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ويأمرنا بترك ما يخالف هذه الأوامر ، وينهانا عن المعاصي كبيرها وصغيرها ، وينهانا عن التعدي ، وكل هذا لأجل أن نتعظ ، فنفعل ما أمرنا الله ، وننتهي عن ما نهانا عنه .

- هذه الآية هي أجمع آية في القرآن ؛ وذلك لأن ألفاظها جامعة عامة ، يندرج تحتها أفراد كثيرة نكاد لا نحصيها .

والقول بأنها أجمع آية في القرآن مروي من قول صحابي جليل :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : "ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي من هذه الآية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ...)" .

رواه البخاري في (الأدب المفرد : ٤٨٩) بسند حسن ؛ للمقال الذي في عاصم بن بهدلة ، وقد جاء من طرق أخرى عند الحاكم في (المستدرك : ٣٣٥٨) وغيره .

- (إِنَّ اللَّهَ) استُفتحت الآية بحرف التوكيد (إِنَّ) وباسم الجلالة (اللَّهَ) تعظيماً لشأن المأمور به في الآية .

- لم يأت النص مخبراً أن القرآن يأمرنا ، رغم أن الآية بيان لما تضمنه القرآن من البيان ، وذلك تصريحاً بأن القرآن إنما هو من عند الله ، (...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ...) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ ...) ، فالتبيان من الله تعالى لا من أحد غيره .

- جاء النص (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) وليس "اعدلوا وأحسنوا وآتوا " ؛ لأن ذكر الأمر فيه تعظيم الأمر ، وأضربُ مثلاً - ولله المثل الأعلى - قولَ سيّدٍ في قومه لأحد أتباعه : "افعل كذا" ليس بقوة قوله له : "آمرك أن تفعل كذا" ؛ لأنه بقوله : "افعل كذا" طلبَ منه الفعل فقط ، ولكن بقوله : "آمرك أن تفعل كذا" طلبَ منه الفعل ، وزاد عليه التأكيد بالتصريح أن هذا الفعل إنما هو فعل أمر إن لم تكن منتبهاً فانتبه ، كأنه يقول له : افعل كذا وهو أمرٌ فاحذر أن تعصيه .

- أتى التعبير بـ (يَأْمُرُ) و(يَنْهَى) ؛ لأن الآية بيان للآية السابقة (...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ...) ، وللدلالة على أن التبيان والهدى والرحمة والبشرى تكون بإطاعة الله في الأمر والنهي .

- أتى التعبير (يَأْمُرُ) و(يَنْهَى) بصيغة الفعل المضارع ؛ لأن الآية بيان للآية السابقة (...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ...) فكأن التقدير : إن الله يأمر الناس في القرآن بـ ... وينهى الناس في القرآن عن ... ، والقرآن حاضر يأخذ الناس أحكامهم منه في كل وقت ، ونتيجة ذلك فإن أمر الله ونهيه متجدد في كل وقت .

- حُذف المفعول في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) ، أي لم يأت النص "يأمركم" أو "يأمرهم" ؛ للدلالة على العموم ، ليشمل كل مخاطَب .

وكذلك حُذف المفعول لتوجيه الانتباه إلى الفعل والفاعل ، وترك الانشغال بالمفعول.

- لكن لماذا لم يُحذف المفعول في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (النساء : ٥٨) فجاء النص (يَأْمُرُكُمْ) وليس "يأمر" ؟

فجاء النص (يَأْمُرُكُمْ) وليس "يأمر" ؛ لأن هذه الآية جاءت في سياق بيان ما وقع فيه الكفار من الكفر والمعاصي وتضييع الأمانات والحقوق ، فاستأنفت الآية أمر المؤمنين لئلا يكونوا مثلهم ، فكان الخطاب فيها موجهاً للمؤمنين ، ولذا كان من المهم التنبيه على المفعول في هذا السياق .

- (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ...) ما جاء الأمر به في هذه الآية إنما هو مجمل غير مفصَّل ، وذلك من باب الإشارة إلى أن القرآن احتوى على بيان كل ما يحتاجه الناس في دينهم ، وعلى هذا يكون التقدير (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ) في القرآن على وجه التفصيل (بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) ، (وَيَنْهَى) في القرآن على وجه التفصيل (عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) .

- (بِالْعَدْلِ) العدل في الآية لفظ عام يندرج تحته ما لا ينحصر من الأنواع ، فالعدل هو إعطاء كل ذي حق حقه ، وهو ضد الظلم . انظر (لسان العرب ، مادة : عدل)

فتوحيد الله من العدل ؛ ألا ترى أن الله يقول (...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان : ١٣) . انظر تفسير (جامع البيان، للطبري (١٧/ ٢٧٩)

وعبادة الله من العدل ؛ لأن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

وطاعة الله من العدل مع النفس ؛ لأننا بالطاعة ندخل الجنة ، وبالمعاصي ندخل النار ، قال تعالى (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (البقرة : ٥٧).

ومن العدل أيضاً : العدل مع الأولاد ، وكذلك العدل بينهم بكل صوره ، والعدل مع الزوجات وبينهن ، والعدل مع الناس وبينهم .

حتى أن إعطاء الحيوان حقه من العدل ؛ فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ ، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ . (البخاري : ٣٠٧١) (مسلم : ٤٩٥١)

فيندرج تحت العدل كل الأقوال والأفعال بكل ارتباطاتها مع كل الأشياء من أشخاص وأوقات وحيوان وجماد .

- والأمر (بِالْعَدْلِ) نهي عن كل صور الظلم في هذه الحياة ، فانظر –بارك الله فيك- سعة عموم الأمر بالعدل .

- (وَالْإِحْسَانِ) الواو للعطف ، والإحسان مصدر أحسن ، نقول : أحسن إحساناً . (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ٢/ ٤٣٧) .

والإحسان هو : إتقان الشيء على أكمل وجه ، وله أنواع ، منها : الإحسان إلى غيره بمعاملته على أكمل وجه ، نقول : أحسن الابن إلى والديه . وكذلك إتقان المرء فعله ، نقول : أحسن الرجل عمله .

وقيل : إن "الإحسان" هو المندوب ، انظر (تفسير ابن كثير ط العلمية ، ٤/ ٥١١) (التحرير والتنوير ، ١٤/ ٢٥٥) .

وهذا غير صحيح ، فإن من الإحسان ما هو فرض كالإحسان إلى الوالدين (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ...) (الإسراء : ٢٣) ، ومن الإحسان ما هو مندوب ، كما يحسن أحدنا إلى أحد دون أن يَجِبَ عليه .

- (الْإِحْسَانِ) لفظ عام يندرج تحته كل صور الإتقان في الأقوال والأفعال ، فالإحسان مع الله سبحانه وتعالى (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (البخاري : ٤٨) (مسلم : ٩)

حتى أن الله شرع لنا الإحسان للحيوان ؛ فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ (مسلم : ٣٦١٥)

- ولعموم "الإحسان" في الآية ؛ فإنه لم يبقَ أي نوع من الإحسان إلا واندرج تحته.

- والأمر بـ "الإحسان" أمر بكل مندوب فضلاً عن الفرض ، ونهي عن كل مكروه فضلاً عن الحرام .

فانظر - بارك الله فيك- سعة عموم الأمر بالإحسان .

- قُدِّم ذكر "العدل" على "الإحسان" ؛ لأن "العدل" كله واجب ، بينما "الإحسان" واجب ومندوب ، والواجب أولى ؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي : "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ " (البخاري : ٦٠٢١)

- قد يسأل سائل : لماذا بُدئ الأمر بالبرِّ في قوله تعالى (... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...) (المائدة :٢) علماً أن البر هو الذي يضم المندوبات ، ثم جاء الأمر بالتقوى التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات ، وهذا على خلاف ما ورد في هذه الآية من الترتيب ؛ حيث كان الأمر بالعدل أولاً ثم الأمر بالإحسان ؟

الجواب عن هذا : جاء الترتيب في هذه الآية بالأمر بالعدل أولاً ثم الأمر بالإحسان ؛ لأن هذه الآية بيان لما تضمنه القرآن ، فكان المناسب أن يُذكر الأهم ، بينما في قوله تعالى (... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...) (المائدة :٢) فإن فيه حضاً على التعاون ، فبُدئ

بالأعم وهو البرِّ ؛ لتوسيع دائرة الحض على التعاون ، ثم ذُكر الخاص – وهو التقوى – تنبيهاً على أهميته .

إذن ، فلكل آية مقصد خاص ، وبين المقصدين فرق ؛ ولذا اختلف التعبير.

- (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) الواو للعطف ، أي : أن الله سبحانه وتعالى يأمر كذلك بإيتاء ذي القربى ، والإيتاء : الإعطاء ، و(الْقُرْبَى) مصدر ، وهم كل من تربطك به قرابة .

- (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) أمر بإعطاء القرابة حقوقهم من البر والصلة ، وحُذف ذكر الشيء المُعطَى في الآية ؛ ليعُمَّ كل ألوان العطاء وأنواعه وأشكاله ، زيادة في الخير ، حتى نعطي ونعطي ولا نستكثر ، وكذلك يشمل هذا العطاء الواجب كما أنه يشمل المندوب .

- لكن صلة القربى تدخل ضمن العدل والإحسان ، فلماذا ذُكرت بعدهما ؟

ذُكرت صلة القربى بعدهما من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ للأهمية والتأكيد على حقوق ذوي القربى .

وجاء هذا التنبيه ؛ لأن كثيراً من الناس من يحسن إلى البعيد وينسى القريب ؛ إما غفلة عن قرابته – كما قيل : شدّة القُرب حجاب - وإما سعياً إلى السمعة بين الناس ، وهذا لا يتحقق بالإحسان إلى القريب كما في الإحسان إلى البعيد ، وإما طمعاً بعلاقات جديدة غير علاقة القربى ؛ لأنها مضمونة .

- لماذا لم يُخَص الوالدين بالذكر كما في قوله تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء : ٣٦) ؟

لم يُخَص الوالدين بالذكر ؛ لأن آية النحل (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ..) عامة ، وآية النساء (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي

الْقُرْبَى ...) تفصيلية ، فناسب عدم ذكر الوالدين في "سورة النحل" ؛ لأن الوالدين يدخلان ضمن ذوي القربى دخولاً أولوياً .

- لماذا جاء التعبير في هذه الآية بـ (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) وليس "وإيتاء أولي القربى" ؟

وقبل الإجابة عن السؤال فلا بد من بيان معنى "ذو" و"أولو" ، فأما "ذو" اسم بمعنى الصاحب ، فـ "ذو القربى" صاحب علاقة القرابة ، و"أولو" جمع بمعنى "ذو" ، ولا واحد له من لفظه .

ولكن جاء التعبير في القرآن بـ "أولي القربى" في سياق الكلام عن المقرَّبين من الأقارب ، وانظر – بارك الله فيك – إلى الآيات :

١- (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) (النساء : ٨) وعادة لا يحضر هذه القسمة كل قريب ، بل الأقارب الذين تربطهم بأهل الميت قرابة أقوى من غيرهم ، فقد يجتمع لأهل الميت من الأقارب ما يصل إلى ألف رجل ، ولكن لا يُدعى لمثل هذا الأمر إلا القليل الأقربون .

٢- (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور : ٢٢)

سبب نزول هذه الآية أن مِسْطح بن أُثاثة لما قال في حق عائشة – رضي الله عنها - ما قال ، وأنزل الله براءتها ، أقسم أبو بكر– رضي الله عنه - أن لا يُنفق على مِسْطح ، فأنزل الله هذه الآية ، فأنفق عليه أبو بكر بعد نزول الآية .

ومِسطح إنما هو قريب لأبي بكر ؛ لأن أم مسطح هي ابنة خالة أبي بكر ؛ لأن أمها هي بنت صخر بن عامر ، وهي خالة أبي بكر .انظر (البخاري : ٣٨٢٦ ، كتاب : المغازي ، باب : حديث الإفك) (مسلم : ٤٩٧٤ ، كتاب : التوبة ، باب : حديث الإفك)

٣- (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة : ١١٤)

وفي هذه الآية نهي عن الاستغفار لذوي القربى مهما كانت قرابتهم ؛ لأن المسلم لا يصر عادة على الاستغفار لكافر إلا لقربه الشديد ، ولذا جاء الكلام في الآية التالية عن استغفار إبراهيم لأبيه .

أما الآيات التي جاء التعبير فيها بـ "ذي القربى " فإن موضوعها إما أن يكون في النصرة أو الإنفاق العام ، وإنما جاء التعبير عن القرابة بالمفهوم الأوسع في النصرة ؛ لأن النصرة إنما هي عند العرب عامة في كل القرابة ، اقتربت أم بعدت ؛ لأن النصرة إنما هي من مفهوم العشيرة والقبيلة ، وكذلك جاء التعبير عن القرابة بالمفهوم الأوسع في الإنفاق العام ليشمل كل القرابة وإن بعدت قرابتهم .

أما الآيات التي جاءت في النصرة :

١- (... فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ...) (المائدة : ١٠٦)

٢- (...وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...) (الأنعام : ١٥٢)

٣- (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ...) (فاطر : ١٨)

أما الإنفاق العام فإن الآيات التي وردت فيه كثيرة ، وأذكر آية واحدة من باب التمثيل .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (البقرة : ٨٣)

واعذرني أخي القارئ ، فإنني أريد أن أُعيد لك ما قلته آنفاً : إن الآيات التي جاء التعبير فيها بـ "ذي القربى " فإن موضوعها إما أن يكون في النصرة أو الإنفاق العام ، وإنما جاء التعبير عن القرابة بالمفهوم الأوسع في النصرة ؛ لأن النصرة إنما هي عند العرب عامة في كل القرابة ، اقتربت أم بعدت ؛ لأن النصرة إنما هي من مفهوم العشيرة والقبيلة ، وكذلك جاء التعبير عن القرابة بالمفهوم الأوسع في الإنفاق العام ليشمل كل القرابة وإن بعدت قرابتهم .

وجاء التعبير عن القرابة بالمفهوم الأوسع في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...) ؛ لأنها آية عامة ، يناسب سياقها الكلام بعمومٍ عن موضوع إيتاء القربى .

- (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) حُذف ذِكر الفاعل جل جلاله ؛ لدلالة السياق عليه (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ .... وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) .

وحُذف ذكر المفعول به للفعل "ينهى" ؛ للدلالة على العموم ؛ حتى يشمل كلَّ مخاطَب . (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ٢٨٠) .

- الأمر بالعدل والإحسان يلزم منه النهي عن الفحشاء والمنكر ، فلماذا وقع النص بالنهي مع أنه معلوم بدلالة الأمر ؟

وقع النص بالنهي مع أنه معلوم بدلالة الأمر ؛ لأن التنصيص زيادة في التأكيد والبيان ، وتثبيت لمعنى النصوص في القلوب .

وأيضاً فإن المقامَ مقامُ بيانٍ لبيانِ القرآن ، والقرآن الكريم احتوى على الأمر مفصّلاً ، واحتوى على النهي كذلك .

- (الْفَحْشَاءِ) هو : ما حكم الشرع بعِظم قبحه من الأقوال والأفعال ، فيندرج تحته كل الذنوب العظيمة ، أذكر منها : القتل والزنا والسرقة والغصب وقطع الطريق والقذف . انظر (مقاييس اللغة ، مفردات ألفاظ القرآن ، مادة : فحش)

- (وَالْمُنْكَر) هو: ما حكم الشرع بقبحه من الأقوال والأفعال ، وتندرج الفحشاء ضمن المنكر من جهة كون الشرع قد قبَّحها ونهى عنها . انظر (مفردات ألفاظ القرآن ، مادة : نكر)

(وَالْمُنْكَر) اسم مفعول من "أنكر" ، أي أن هذا الشيء تنكر الشريعة فعله ، فهو أمر غير معروف بالخير عندها .

وقد مدح الله الناهين عن المنكر بقوله (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...) (التوبة : ٧١)

وذمَّ الله من لا ينهى عن المنكر بقوله (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)) (المائدة)

- (وَالْمُنْكَر) قيل : إن الاستنكار مراتب ، منها : مرتبة الحرام ، ومنها : مرتبة المكروه فإنه منهيّ عنه . انظر (التحرير والتنوير ،١٤/ ٢٥٧)

وهذا القول فيه نظر ؛ وإن كان المنكر من الناحية اللغوية يحتمل هذا القول ، لأن الإنكار هو عدم القبول ، قال ابن فارس في (مقاييس اللغة ، مادة : نكر) : "(نكر) النون والكاف والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف المعرفة التي يَسكُن إليها القَلب . ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَره : لم يَقْبَلْه قلبُه ولم يعترِفْ به لسانُه " .

أما المنكر في الآية فهو الحرام ، وقد استعرضت الآيات التي ورد فيها ذكر "المنكر" لفهم المقصود منه ، فوجدت أكثرها يحتاج لنص آخر لبيان المقصود من المنكر ؛ ولكن من الآيات ما يوضح أن المنكر عند الإطلاق إنما يدل على الحرام :

قال تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (٧٩)) (المائدة)

وكلمة (مُنْكَرٍ) في الآية على العموم ، حيث يندرج تحتها كل أنواع المنكر ؛ وذلك لأنها نكرة في سياق النفي ، فهل استحق بنو إسرائيل اللعن وذم عملهم لأنهم لم يتناهوا عن المكروهات ؟

الجواب : لا . بل استحقوا اللعن بعصيانهم على العموم (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) ومن جملة هذا الاعتداء أنهم لا يتناهون عن المنكر ، ولا يدخل فيه المكروهات ؛ لأنها ليست من ضمن العصيان والاعتداء ، بل هي جائزة في الشرع ولكن غيرها خير منها .

وهناك دليل أشد وضوحاً وهو قول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ : أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ ، أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ ؟

قَالَ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ (البخاري : ٣٠٢٧) (مسلم : ٥٣٠٥)

فهذا المُعذَّب إنما استحق العذاب لأنه كان ينهى عن المنكر ويأتيه ، فما هو المنكر ؟ إنه الحرام ؛ لأن النهي عن المكروه وفعله لا يوجب العذاب ؛ لأن فعل المكروه أصلاً لا يوجب العذاب .

ولأن المنكر هو الحرام فلا بد من تغييره قدر الاستطاعة ؛ قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ (مسلم : ٧٠)

- تنبيه : لا يعني أن المكروه لا يندرج تحت المنكر أن نترك النصيحة في حقه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران : ١٠٤) فالدعوة إلى الخير متضمنة الدعوة إلى ترك المكروه ، وكذلك فإن الأمر بالإحسان متضمن النهي عن المكروه .

ولكن هناك فرق بين النصيحة والإرشاد في حق المكروه ، وبين إنكار المنكر ، فالإرشاد إلى ترك المكروه وفعل المندوب إرشاد إلى الأفضل ، وبأسلوب لين وترغيب يناسب هذا المقام ، بينما أسلوب إنكار المنكر مختلف ، لأن فاعله وقع في معصية .

- (وَالْبَغْيِ) هو التعدي ومجاوزة الحد ؛ فإن أصل مادة "بغى" في اللغة : ةطَلَبُ الشيء ، فإن كان في خير كان خيراً ، وإن كان في شر كان تعدياً وتجاوزاً للحد .

و"البغي" نوع من أنواع الظلم ، قال تعالى (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الحجرات : ٩) فالاعتداء على المؤمنين هو ظلم .

- لكن ما الفرق بين الظلم والبغي ؟

الفرق بين الظلم والبغي ، أن الظلم أعم من البغي ، فكل بغي ظلم ، وليس كل ظلم بغياً ، قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١)) (الشورى)

اعتُبر - في الآيات – من أصابه البغي مظلوماً (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) ، والفارق الذي يميز البغي عن باقي أنواع الظلم ، أن البغي هو التعدي على الآخرين على وجه التسلط والتطاول .

ولذا فلا تَعارض بين (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان : ٦٣) وبين (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) (الشورى : ٣٩) ؛ لأن مخاطبة الجاهلين ليست بغياً .

- النهي عن البغي مندرج تحت النهي عن الفحشاء والمنكر ؛ ولكن هذا من باب ذكر الخاص بعد العام للأهمية ، لأن الاعتداء على الناس يتضمن حقين ، الأول : حق الله سبحانه وتعالى ، والثاني : حق العباد ؛ ولذا قال تعالى (... وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ...) (المائدة : ٢) فالإثم هو الذنب العام ، ويندرج العدوان ضمنه ، ولكن ذكر العدوان من باب ذكر الخاص بعد العام للأهمية ؛ لأن العدوان هو الاعتداء على العباد .

- يتساهل الناس في حقوق العباد ، فتراهم يصلّون ويصومون ، ولكنهم يغشون ويخدعون ، ويظنون أنهم على الحق التام ، وأن البغي على العباد أمره يسير ، وخطبه حقير ، ولذا فكم وكم ممن يُظنُّ فيهم الالتزام يخفقون في امتحان حقوق العباد .

- ولكن لماذا تقدّم الأمر على النهي في الآية ؟

تقدّم الأمر على النهي في الآية ؛ لأن الأمر بالواجب والمندوب يتضمن نهياً ، فهو طلب فعل وطلب ترك في وقت واحد ؛ نقول : صلِّ . وهذا أمر يتضمن النهي عن ترك الصلاة ، وهكذا .

بينما النهي قد لا يتضمن – أي في بعض الأحيان - أمراً ، نقول : لا تشرب الخمر . فهذا النهي لا يُفهم منه أمرٌ بفعل شيء آخر .

والخلاصة أن الأمر قُدِّم على النهي ؛ لأن الأمر يتضمن في تضاعيفه توجيهات أكثر من النهي ، ولكن قد يُقدَّم النهي على الأمر في سياق آخر لأغراض بيانية أخرى .

- (يَعِظُكُمْ) اختلف في معنى الوعظ ، فقيل : الكلام الذي تلين له القلوب . وقيل : زجر مقترن بتخويف . انظر (مقاييس اللغة ، ومفردات ألفاظ القرآن ، ولسان العرب ، مادة : وعظ)

ولكن المعنى المستنبط من الآية ، هو: أن الوعظ أمر وكذلك زجر ، لأن الآية اشتملت على الأوامر والنواهي ، فالوعظ نصيحة وإرشاد يبرز فيه معنى التذكير ، وانظر في قصة نوح - عليه السلام - في "سورة هود" : فلما سأل نوح - عليه السلام - ربه في شأن ابنه ، قال له ربنا سبحانه وتعالى (... يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود : ٤٦) أي : (أَعِظُكَ ؛ لما سبق من إعلامك (... احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (هود :٤٠)

وكذلك قوله تعالى (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يبين العلاقة بين الموعظة والتذكير .

- (يَعِظُكُمْ) التفات إلى أسلوب الخطاب ؛ فالخطاب في قوله تعال (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ..) على العموم ، كما سبق بيانه عند بيان الفائدة من حذف المفعول .

وكان الخطاب في الآية التي قبل هذه الآية موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل : ٨٩)

والالتفات إلى الخطاب (يَعِظُكُمْ) ؛ لأن الموعظة فيها التذكير ويناسبه القرب ، وأسلوب الخطاب أدعى للقرب .

- ولكن لماذا لم يقع العطف بين (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وبين ما سبقه في الآية ؟

هذا يُسمى في علم البلاغة بشبه كمال الاتصال ، ويكون شبه كمال الاتصال بأن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال نَتَجَ عن الجملة الأولى ، أي : لماذا يأمرنا الله بالعدل

... وينهى عن ... ؟ الجواب (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أي : إن الله يعظكم بما وعظكم لأجل هدايتكم رحمةً بكم .

- (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) قد اختلف المفسرون في "لعل" ، وهذا الاختلاف في كونها للترجي ، والترجي أمر لا يجزم بوقوعه ، وبناء على هذا وقع الاختلاف ، وكلُّهم على أن الشك لا يُنسب إلى الله سبحانه وتعالى . انظر (التسهيل في علوم التنزيل ، لابن جُزَي ، ج١/٤٢)

و"لعل" - هنا - بمعنى التعليل ؛ أي أن الله يعظنا حتى نهتدي رحمة بنا .

- (تَذَكَّرُونَ) تتعظون ؛ فتخرجون من غشاوة الغفلة إلى نور الهداية والذكرى .

- لماذا جاء التعبير في الآية بـ (تَذَكَّرُونَ) وليس "تتفكرون" أو "تعقلون" ؟

الجواب عن هذا أن فِعل العدل والإحسان وصلة القربى والابتعاد عن الفحشاء والمنكر والبغي لا يحتاج إلى إجهاد العقل في التفكير العميق ، وإنما يحتاج إلى تذكّر واتّعاظ ، وهذا أمر يقدر عليه كل المكلَّفين ؛ ولذا جاء التعبير بـ (تَذَكَّرُونَ) وليس "تتفكرون" أو "تعقلون".

وتأمل معي الفرق في استعمال "يتفكرون" و "يعقلون" و"يذَّكرون" :

١- (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل : ١١)

جاء التعبير بـ (يَتَفَكَّرُونَ) وليس بـ "يتذكرون" ؛ لأن الأمر ليس ظاهراً ظهور ما يحتاج إلى تذكّر فقط ، وليس بـ"يعقلون" لأن الأمر لا يحتاج إلى المبالغة في إعمال العقل ، بل العبرة بأمر الزرع والثمار تحصل بتفكر وتأمل في حال البذرة ونموها وإثمارها ، وكيف أن هذه البذرة انتقلت من بذرة يابسة إلى زرع يانع وثمار ناضجة ، وهذا يقدر عليه عامة الناس.

٢- (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل : ١٢)

جاء التعبير في هذه الآية بـ (يَعْقِلُونَ) لأن آيات عالَم الفضاء لا يستقلّ بمعرفتها العامة من الناس ، بل لا بد من استخدام العقل لمعرفتها .

٣- (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (النحل : ١٣)

جاء التعبير بـ (يذّكرون) ؛ لأن الأمر لا يحتاج إلا إلى مجرد التذكر لما غفل عنه الإنسان ؛ لأن ما ذرأ الله لنا في الأرض من مختلف الألوان ، أمر ظاهر للعيان ، بادي لكل إنسان . انظر (درة التنزيل وغرة التأويل ، الخطيب الإسكافي ، ص: ٨٢٥)

وفي ختام هذه الرسالة أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل فيها الأجر والأثر ، إنه سميع مجيب .

كتبه

سامي وديع عبد الفتاح القدومي

الأردن